**د/ رمضاني أم هاني**
**قسم التاريخ جامعة الجزائر -2-**

# الإمبراطورية الرومانية والمسيحيـــة

عرف العالم الروماني كغيرهم من شعوب العالم القديم عبادة الأوثان وقد حرسوا كل الحرص على تقديسها وتقديم القرابين لها، وتأسيس أرقى المعابد لها، وقد تميز الفكر الديني الروماني بظاهرة الامتزاج بين العديد من المؤثرات الحضارية كاليونانية، والفارسية، والفينيقية ...الخ، ولكن رغم محاولة بعض الأباطرة الحفاظ على العبادات القديمة المحلية ، إلا أن التوسعات التي قامت بها الإمبراطورية الرومانية في الجهات الأربع كان لها التأثير في المجال الديني ذا البعد السياسي.ولم يقتصر التأثير الديني على الرعية فقط بل وصل إلى السلطة العليا مع مرور الوقت والمتمثلة في شخصية الإمبراطور بحد ذاته.

ففي أثناء القرن الثالث الميلادي أصبح العالم الوثني الروماني يتجه رويدا إلى التفكير في عبادة إله واحد. وكان ذلك باعتراف الامبراطور أورليان(Aurelianus) (270-275م) رسميا بعبادة الشمس، ونظرا لأهمية الديانة الواحدة وما يترتب عنها من نتائج سياسية هامة، إذ تولى ديوقلسيانوس بنفسه تقديم القرابين لآلهة المتعددة، مع أنه اختص بعبادة الإله جوبيتر [(1)].

واقترنت شخصية الإمبراطور بالإله جوبيتر(Jupiter)، باعتباره ابن الإله، وهذه الصفة جعلت الشعب الروماني يقوم بتقديسه وعبادته، ولكن الجديد عند ديوقلسيانوس أن نظم عبادة شخصية بتدشين شعيرة لعبادته،

ليتوافد الشعب إليها، وهذه العملية تخضع للقوانين التي يجب إتباعها في وقت العبادة كالرّكوع، وتقبيل ثياب الإمبراطور[2].

وترتب عن تعلق ديوقلسيانوس بالعبادات القديمة في روما وبلاد اليونان، كراهيته للمعتقدات الجديدة، التي تفسد إيمان رعاياه وولائهم، وتضعف من وحدة الإمبراطورية. فأنكر عبادة المانوية[3] التي كان الفرس يدينون بها، حتى لا تتسرب إلى داخل الإمبراطورية[4].

وأشد ما لقي ديوقليسيانوس من مشاكل الإمبراطورية مشكلة الكنيسة المسيحية، لا لأنها تعبد إلها واحدا فحسب بل لأنها ترفض العقيدة الإمبراطورية- عبادة الامبراطور-، وبذلك خيرت رجالها بين الإخلاص للمسيح أو الإخلاص للإمبراطور، وأكثر ما تأثر بالمسيحية الضباط في الجيش الروماني[5].

وهذا ما جعل ديوقلسيانوس يغير سياسته اتجاههم، حيث أصدر حوالي سنة302م قرارا يقضي بمصادرة جميع أملاك الكنيسة، وحرمان المسيحيين من حقوقهم المدنية، كحرمانهم مثلا من المواطنة الرومانية، واشتغال الوظائف الإدارية، وصار ممنوع عتق الأرقاء المسيحيين، وأجاز القرار تدمير الكنائس المسيحية وإحراق الكتب المقدسة[6]، ومنعهم من إقامة شعائرهم، وفرض عليهم تقديم القرابين لآلهة الوثنية، وتابعهم باضطهاد عنيف حتى سمي بسفاح المسيحيين[7].

وزاد ديوقلسيانوس في التنكيل بالمسيحيين سنة 304م، حتى تخلى كثير منهم عن عقيدتهم، ومن خلال هذه الاضطهادات أدى إلى إضعاف وحدة الكنيسة وتشتت شملها[8].

والجـدير بالإشـارة أن بعـد أن اعتلـى قسـطنطين الكبـير[9] عـرش الإمبراطورية، وانفراده بالحكم سنة 324م، أحدث بعض الإصلاحات داخل الإمبراطورية، وكان أول ما قام به إرجاع الوحدة السياسية داخل الإمبراطورية، وبهذا الإجراء ألغى قسطنطين النظام الرباعي الذي أوجده ديوقلسيانوس، ومن أهم ما عمل إنشاء مدينة القسطنطينية، واتخاذها عاصمة مسيحية للإمبراطورية البيزنطية[10].

والعاصـمة الجديـدة تقـع علـى خـط عـرض 43 وخـط طـول 29 وتسيطر المدينة على تلالها السبعة[11]، وهذا له أهميته من الناحية العسكرية والدفاعية، حيث تعتبر قاعدة للجيوش التي تشحن بها حدود فارس والدانوب وقاعدة بحرية، تسيطر على شرقي المتوسط[12]، كما لا يمكن اقتحامها من البحر للأسوار التي تحميها[13] إضافة إلى كونها كانت تتمتع بمناخ صحي معتدل وتربته خصبة، ومدخلها إلى القارة الآسيوية قصير المدى والدفاع عنه ميسور[14].

أما الناحية الاقتصادية فوقوعها عند التقاء القارتين أوروبا، وآسيا أصبحت تتحكم في المواصلات، وفي الطريق البحري بين بحر إيجه، والبحر الأسود، فأصبحت أهم مركز للتجارة العالمية[15]، واحتوائها على ميناء طبيعي (القرن الذهبي) واسع ومناسب لعملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر، فتدفقت ثروات هامة على المدينة من أقصى الأرض إلى ثغر المدينة [16].

وقد ظلت عاصمة القسطنطينية على مدى ألف سنة، عاملا مهم في التّطور الحضاري، لقربها من أهم مراكز الإشعاع الفكري للحضارة الهلنستية، والتي أسهمت بعد تأثرها بالمسيحية، في الحضارة البيزنطية[17].

وكانـت المقومـات الثّلاثـة: الثقافـة الهلنسـتية، الدِّيانـة المسـيحية، والتنظيم السياسي الجديد، هي التي حددت شخصية الدولة والتي عرفت بها تاريخيا باسم الإمبراطورية البيزنطية[18]، ومع صدور مرسوم قسطنطين الشهير الذي اعترف فيه بالديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وتأسيس العاصمة الجديدة (القسطنطينية)، هما الحادثين الهامين اللذين اعتمد عليهما المؤرخون في قيام الدولة البيزنطية[19]. ومن ذلك أعتبر تاريخ 330م أهم نقطة انطلاق التي يمكن أن نعطيها للتاريخ البيزنطي[20].

## ج- المسيحية والإمبراطورية:

وفي القرن الرابع واجهت الإمبراطورية الرومانية أزمة دينية، حيث كان هناك تعارض شديد بين ما كان من تراث الوثنية، وتعاليم الدين الجديد الآخذة في الانتشار ألا وهو الدِّين المسيحي. وبدى التعايش فيما بينهما مستحيلا، إلا أن قسطنطين الكبير قام بدور مهم في تحقيق ذلك، حتى إستطاعت أن تمتزجا تدريجيا المسيحية، والهيلينستية الوثنية لتكون ثقافة مسيحية هلينستية التي تعرف في العصر الحديث بالثقافة البيزنطية، التي كان مركزها عاصمة الإمبراطورية الجديدة[21].

وقد كتب المؤرخ أسبنسكي(Uspensky) يقول:<< إن اختيار موقع العاصمة الجديدة، وبناء القسطنطينية، وخلق مدينة تاريخية ذات أهمية عالمية كان من أعظم الأعمال السياسية، والإدارية التي ترجع لعبقرية قسطنطين. وأن الخدمة العظمى التي قدمها قسطنطين للعالم لا تقع في سياسة التسامح الديني الذي لابد وأن يتبعه خلفاؤه بل في نقله عاصمة العالم إلى القسطنطينية في الوقت المناسب لإنقاذ الثقافة القديمة، وخلق تربة تناسب انتشار المسيحية>>[22].

ويعود سبب انتشار المسيحية[23] إلى الفراغ الروحي، والبلبلة الفكرية في الشؤون العقائدية، كما نجد الطبقة المستضعفة التي تبحث عن عزاء وأمل في حياة أخرى تعد بها بعض الأديان خير وأبقى من الحياة الدنيوية البائسة، وكانت المسيحية إحدى ديانات الشرق الأكثر انتشارا لما وعدت به المؤمنين المتقين من حياة أخرى خيرة[24].

وكان من الطبيعي أن يتحول موقف الإمبراطورية من المعارضة إلى الاضطهاد عبر السنين، حيث شرعت عدة قوانين منها قانون في عهد تراجان 117م اعتبرت المسيحية جريمة ضد الدولة، فأثر ذلك في المسيحيين، واتخذوا موقفا سلبيا من الإمبراطورية، فامتنعوا عن الخدمة في الجيش، واشتغال الوظائف الحكومية، وجعلوا اجتماعاتهم سرية، مما خلق نوع من الشك في ولائهم للسلطة، ومن بين مضطهديهم ديوقلسيانوس، وجالريوس..[25].

### 1- الإعتراف بالديانة المسيحية:

ومع بداية القرن الرابع الميلادي بدأ الاعتراف بالديانة المسيحية كإحدى الدِّيانات الرِّسمية، وقبل نهاية هذا القرن أصبحت الديانة الرسمية الوحيدة في الإمبراطورية[26]. نجد جاليريوس(Galerius) بعد سنوات من الإضطهاد، يصدر مرسوم عاما سنة 311م مما جاء فيه: << إننا نرغب في أن نبسط مزايا رأفتنا على هؤلاء المسيحيين التعساء، فنحن نأذن لهم بالمجاهرة بمعتقداتهم الخاصة بحرية تامة. وأن يمارسوا طقوسهم الدينية دون خوف أو إزعاج، طالما أنهم يظهرون الإهتمام و الإحترام للقوانين والحكومة القائمة. وأننا لنأمل أن يكون تسامحنا هذا للمسيحيين دافعا قويا يدعوهم إلى الابتهال للإله الذي يقدسونه لكي يمن على شخصنا بالسلامة وعليهم وعلى الجمهورية بالرخاء والسعادةّ >>[27].

إلا أن هـذا المرسـوم لم ينشـر، وإنمـا أعطيـت بعـض التعليمـات إلى حكـام الـولايات، جـاء فيهـا وقـف محاكمـة المسـيحيين، غـض الطـرف عـن اجتماعـاتهم السرية، وإطلاق سراح المعتقلين منهم، إلا أن ذلك لم يدم طويلا لقصر حكم جاليريوس(305م-306م)[28].

كما أصدر قُسطنطين مرسوما سمي بـ << مرسوم ميلان>> عام 313م[29] الـذي أعـاد السّـلام والهـدوء للمسيحية، خاصـة بعـد معركـة جسـر ميلفيـان(Milvian)عـام 312م [30]. لقـد تعـددت الـروايات عـن اعتنـاق قسـطنطين المسـيحية والإعـتراف بهـا، فـبعض المـؤرخين يـذكرون أن اعتنـاق قسطنطين للمسيحية كان عن إيمان ويحددون ذلك بعام 312م، عندما كان راكبـا في مقدمـة جيشـه للقـاء منافسـه مكسـينيتوس(Maxentius) رأى في السماء صليبا مكتوبا عليه" ستنتصر بفضل هذا " ثم أن السيد المسيح ظهر في رؤيا الليلـة التاليـة حـاملا نفـس الشـارة وأوصـى قسـطنطين باتخاذهـا رايـة لـه في هجومه على العدو، كما دخل الصليب في تشكيل راية الإمبراطورية وسميت باسم لاباروم( Labarum)[31].

وممـا جـاء في هـذا الـرأي مـا ذكـره المـؤرخ يوسـيبيوس، وهـو صـديق للإمبراطـور، يقـول بأن دوافـع قُسـطنطين على اعتنـاق المسـيحية كانـت دينيـة أملتهـا الإرادة الإلهيـة، وأنـه لم يعلـن مسـيحيته بشـكل رسمـي، وأن ذلـك جـاء متأخرا قبيل وفاته بناء على مشيئة الرب. أما البعض الآخر فيقول أنه اتخذ المسيحية لدولته لأسباب دنيوية تتعلق بمصلحتها[32]، ودوافع سياسية وعلى رأسـهم المـؤرخ هنـري جريجـوار(Gregoire Henry) الـذي يقـول:<< مـن كان يُريد الشرق فعليه أن يكون مسيحيا أو صديقا للمسيحيين>>[33].

والبعض الآخر يذكر أن قُسطنطين بقي وثنيا طوال حياته ولم يتقبل النّصرانية إلا وهو على فراش الموت، وبقي محتفظا بلقبه الوثني ألا وهو الكاهن الأعظم(Pontifex Maximus) [34].

وظهرت عدة أبحاث حديثة فيما يخص مرسوم ميلان 313م بشأن المسيحية، والتي تبين أنه لم يكن هناك مرسوم وإنما بعد اجتماع الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس في مدينة ميلان أقر أن مرسوم جاليريوس- مرسوم التسامح سنة 311م- لم ينفذ بشكل مرض، لذا أرسلا إلى عمالهما المنشور الدوري لتأكيد تنفيذه، وكان أن ظن المؤرخون السابقون أنه مرسوما جديدا والذي عرفوه خطأ باسم مرسوم ميلان[35].

وعلى أساس هذا المرسوم أعطت المسيحية نفس الحقوق والمساواة التي تمتعت بها الديانات الأخرى منها:

- رد كل الحقوق الدينية إلى المسيحية التي كانوا حرموا منها ظلما وعدوانا.

- تعاد للمسيحيين كل أماكن عبادتهم والأراضي العامة المصادرة دون جدل أو إبطاء أو تكلفة[36].

- إعفاءهم من ضرائب الدولة والواجبات الأخرى مثل الخدمة في المناصب الحكومية الأمر الذي من الممكن أن يشغلهم عن واجباتهم الدينية.

- أي شخص أراد أن يوقف أملاكه على الكنيسة أصبح مصرحا له أن يفعل ذلك. وبذا أصبح للكنيسة حق الإرث.

- إثر الإعلان بالحرية الدينية اعترفت الدولة بالجماعات المسيحية كوحدات قضائية فقد منح الإمبراطور المحاكم الأسقفية امتيازات هامة للغاية،

وأصبح من حق أي متقاض إذ وافق خصمه أن يرفع قضيته إلى المحكمة الأسقفية.

- اتساع سلطة المحاكم الأسقفية وأصبحت تشمل:

أولا: لا يكون هناك مرد لحكم الأسقف في قضايا الأشخاص أيا كانت أعمارهم.

ثانيا: كان من الممكن أن تحول أي قضية مدينة إلى المحاكم الأسقفية في أية مرحلة من مراحلها حتى ولو وافق أحد المتخاصمين[37].

ثالثا: يصدق القضاة الأهليون على قرارات المحاكم الأسقفية [38].

ازدادت ثروة الكنيسة المادية وأصبحت تنتشر الكنائس في كل أرجاء الإمبراطورية، كنيسة القديس بطرس وكنيسة اللاتيران في روما، كما شّيدت أم قسطنطين هيلينا كنيسة الضريح المقدس( Holy Sepulcher ) في أورشليم، وبنى قسطنطين كنيسة القيامة، وكان أهمها كنيسة الرسل وكنيسة القديسة ايرين (Irene) وغيرها .. فأصبحت هناك ثلاثة مراكز مسيحية هامة هي: روما المسيحية في ايطاليا، القسطنطينية المسيحية في الشرق وأخيرا أورشليم المسيحية[39].

## 2- الإنقسامات الدينية المسيحية:

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها أثر كبير في تاريخ الشرق والغرب جميعا، والمشكلة الكبرى التي دامت قرنين من الزمان، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب [40].

وهـي مـن أبـرز المشـاكل الـتي واجهتهـا الإمبراطوريـة أواخـر أيام قسطنطين، وأثـرت علـى المجتمـع المسـيحي، ممـا أدى التـدخل فيهـا بعقـد أول مؤتمر كنسي مسكوني عام 325م – عرف باسم مجمع نيقية( Nicaea) – وكان سبب الإنشقاق الكنسي الذي أحدثه أريوس(Arius) [41]، هو نشره لمذهبه الـذي عـرف " بالمـذهب الأريوسـي" وآمـن بـه كثيرا مـن النـاس خاصـة الأقسـام الشـرقية، يقـوم علـى الإيمـان بخلـق الابـن وخلـق الـروح القـدس، وإنكـار ألوهية المسيح. بعبارة أنه أمن بوحدانية الله[42].

وقد اعترضه اثناسيوس(Athenasios) [43] حيث يقـول بأن فكـرة الثـالوث المقـدس تحـتم بأن يكـون الابـن مسـاويا للإلـه الأب تمامـا في كـل شـيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه. ولم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسي في بلاد الغرب اللاتيني، وتفاقم النزاع بين الطرفين فيما يخص مكانة المسيح[44].

حتى تدخلت الدولة فيما وقع بين الأحزاب الكنيسة من مجادلات دينية، فالجدل حول العقيدة لم يعد مقتصرا عليها وحدها، وإنما أصبح عاملا مهما في الحياة السياسية والكنيسة، وأصبح هناك ضرورة التعاون لفك الخلاف بـين السـلطتين الدينيـة والسياسـية، وهـذا مـا قـام بـه قسـطنطين بعقـد أول مجمع[45]وهو:

- مُجمـع نيقيـة(Nicaea)325م: دعـا قسـطنطين إلى انعقـاد المجمـع، وحضـر حوالي300إلى 318 أسقفا، وتولى قسطنطين رئاسته[46]، وخلص إلى إصدار مرسوم الإيمان وهو قبول الصيغة المعروفة، التي يعتبر المسيح مساويا لـلأب في الجـوهر، فهـو إلـه مـن إلـه، ونـور مـن نـور، وإلـه مـن إلـه حـق، مولـود غـير مخلوق[47].

وأصبح هذا المرسوم هو قاعدة الإيمان الأرثوذكسي للكنيسة الجامعة فيما بعد[48]، لم يقبل أريوس قرار المجمع، وتم نفيه إلى إلليريا وإلغاء كتاباته، وتحريم تداولها واضطهاد أتباعه من الأريوسين، إلا أنها انتشرت، وانتقلت إلى القبائل الجرمانية عبر الدانوب، وفي أسيا الصغرى، والشام[49].

وبانتشار المذهب الأريوسي زادت قوته، وبما أن قسطنطين اعتزم تغيير مقر عاصمته إلى الشرق، استلزم عليه تغيير مذهبه واسترضاء سكان القسم الشرقي من الإمبراطورية وهكذا تم عقد المجمع الثاني[50]وهو:

- مجمع ديني في صور سنة 334م: وتم من خلاله إلغاء قرارات مجمع نيقية الأول، العفو عن أريوس وأتباعه، وعزل اثناسيوس ونفي إلى تريف(Treve)في غاليا، وبقي هناك حتى أطلق سراحه الإمبراطور جوليان(Julian)(361-363م)، بعد أن توفي قسطنطين سنة 337م، وتم تعميده وفق المذهب الأريوسي حسب ما قيل[51].

إلا أن حدة الصراع زادت، وذلك بعد انقسام الإمبراطورية على أولاد قسطنطين، وانقسامهم بين مؤيدي للأريوسية ويتمثل في قسطنطينيوس(361-337م)أما قسطنطين(340-337م) وقسطانز (337-350م) اتبعا المذهب الأثناسيوسي[52]. مما زاد في الانشقاق بين شطري الإمبراطورية، فانعقد في خريف عام 346م مجمع كنسي في سرديكا (صوفيا حاليا)، إلا أنه لم يوفق في إيقاف النزاع الديني، ولنتيجة الخلاف أدى إلى انقسام الاريوسية إلى قسمين: فريق معتدل يصرح: أن الأب والابن من مادة مماثلة، وان لم تكن من نفس المادة، أما الفريق الآخر: وهو يمثل الأريوسية الخالصة، فأنكر كل نوع من أنواع التشبيه والمماثلة[53].

ويعود في الأخير المذهب الأريوسي مذهبا رسميا في مؤتمر ريميني وسرميوم ( Sirmium and Rimini) المنعقد في عام 359م[54]، بفضل الإمبراطور قسطنطينيوس الذي بين من خلاله مدى تعلقه بهذا المذهب، كما قام بحملة ضد الوثنية حيث أصدر مرسوما يغلق فيه المعابد الوثنية، ومنع الناس من التردد عليها، وحرم تقديم القرابين في سائر أنحاء الإمبراطورية.

وأزال تمثال إله النصر من قاعة مجلس الشيوخ في روما.فاعتبر كابوسا على الأثناسيوسين والوثنيين على حد السواء، عند موته سنة361م[55]، قال القديس جيروم:<< مات الوحش وعاد الهدوء >> [56].

وتميزت فترات الحكم الآتية بنوع من المد والجزر فيما يتعلق بالعقائد الدينية الموجودة في الإمبراطورية، حيث نجد في فترة حكم الإمبراطور جوليان[57]،خطرا على المسيحية لاعتناقه الوثنية، فأراد إعادة مجد الوثنية، ومكافحة المسيحية[58]، فأصدر مرسوما الذي يحدثنا عنه المؤرخ أميانوس مارسيللينوس بقوله:<< فأمر (أي الإمبراطور جوليان) بأن تفتح المعابد الوثنية، وأن تقدم القرابين على المذابح من أجل عبادة الآلهة>>، فقد أراد جوليان إحياء الديانة الوثنية القديمة، وإعطاءها مقومات جديدة تتناسب مع تطور الفكر الديني، وفي هذا النطاق نظم هيئة كهنوت وثنية، ورتب داخل المعابد الوثنية على غرار الترتيب المتبع في الكنائس، وأصبحوا يسمعون إلى قراءات من كتب الحكمة الهللينية، وإلى الغناء، والموسيقى كما هو الحال في الكنائس، وقد أعلن جوليان في اجتماع أنه أراد بذلك أن تعيش إمبراطوريته عهدا من التسامح الديني، وحرية الفرد في اختيار الدين الذي يريده دون إكراه[59].

غير أنه ما لبث أن تحيز للوثنية، فقام باضطهاد المسيحيين، فابعدوا عن الوظائف العليا، كما رفع الرموز المسيحية والصلبان من أعلام الجيش و دروع المحاربين وعوضها بإشارات وثنية، وأصبح تعيين المدرسيين مقتصرا على الوثنيين لينشأ الشباب على الديانة الوثنية[60].

بعد وفاته عام 363م اثر إصابته بسهم، آلت المسيحية من جديد إلى الواجهة على يد جوفيان(Jovian)(363-364م)، وفالنز(Valens)(364-378م)، وكان هدفهم إعادة الوحدة والسلام. إلا أن الإمبراطور ثيودسيوس الأول(Theodosius I)(379-395م)، عقد مجمع كنسي بالقسطنطينية عام 381م عرف باسم مجمع القسطنطينية، فرض فيه مذهب اثناسيوس، وأعلن تطبيق سياسة المذهب الواحد، وقام بمكافحة المسحيين أتباع المذهب الأريوسي[61]، وأعقب ذلك سياسة العنف ضد الوثنيين، أمر بتهديم معابدهم ونهبها وتحريم عبادتهم، إثر إصداره لمراسيم يبلغ عددها على الأقل خمسة عشر مرسوما من عام 380م إلى عام 394م[62] وكانت نهاية الدين الوثني بصفة نهائية في عهد ثيودسيوس الأول [63]، ويدعو أحد المؤرخين هذا القرار<< بنشيد الموت>> بالنسبة للوثنية[64].

وكان يهدف من ذلك إلى وضع حدٍ حاسم لهذا الداء الذي كان ينخر جسد الإمبراطورية، ويزيل الخطر الذي كان يهدد وحدة شعبه في الشرق والغرب[65].

وقد كان هذا التعاون بين الكنيسة والدولة الذي ابتدأه قسطنطين أثرا طيبا لكل من الكنيسة والدولة، غير أنه جر الكثير من المشاكل، فقد أعطت العقيدة المسيحية الدولة البيزنطية وحدة روحية قوية، كما أعطت لفكرة الأباطرة في الحكم المطلق التأييد المعنوي الذي كان ينقصها، من جهة أخرى

حظيت الكنيسة بتأييد الدولة المادي، وساعدتها في حملاتها التبشيرية، وفي الوقوف في وجه خصومها، مما أظهر الكنيسة بمظهر المعتمد على الإمبراطورية، وبهذا التعاون أصبح الطرفين جزءا لا يتجزأ من الحياة السياسية والكنيسة(66).

ففي منتصف القرن الخامس الميلادي تعرض النصف الشرقي إلى أزمة سياسية خارجية خطيرة، بسبب ما قام به الهون بزعامة أتيلا(Atila) من غارات مخربة، امتدت في أراضي الإمبراطورية حتى بلغت أسوار القسطنطينية واستنزف أموالها، ثم تم تحويل أنظاره إلى القسم الغربي وبعد انهزامه وموته سنة454م، ورغم هذه الأزمات السياسية والمشاكل الداخلية، كان مقر الكنيسة الرومانية تتربع مكان الصدارة كمركز روحي للعالم المسيحي(67) بأجمعه. حيث كان البابا ليون الكبير (440-461م) يصر على أن الكنيسة الرومانية هي سيدة كنائس العالم الروماني، حيث لعبت دورا هاما في الخلافات العقائدية في القرن الخامس، والتي كانت تهدف من خلالها قيادة العالم المسيحي(68).

ظهرت عدة مذاهب أخرى أدت إلى صراعات داخل الإمبراطورية منها المذهب النسطوري(69) والمذهب المينوفيزي(70)، وفي نفس الوقت هناك من الأباطرة من يساندها، وسارت على نفس وتيرة المذاهب الأخرى(71)، فقد أيد الإمبراطور ثيودسيوس الثاني(Theodosius II)(408-450م) نسطورس(Nestorius) رئيس بطارقة القسطنطينية، وأيد النسطورية إلا أنه تراجع عن ذلك واعتنق المينوفيزتية(Monophysite) وذلك بعد المؤتمر العالمي الثالث الذي عقد في أفيسوس(Ephesus)عام 431م. وأمر بنفي نسطورس إلى مصر، في أواخر سنين حكمه مما أدى إلى إثارة كنيسة روما(72).

وانعقد مجمع خلقدونية(Chalcedon) سنة 451م بآسيا صغرى، بقيادة الإمبراطور مارقيان(Marcianus)(450-457م) والذي

تقرر تحديد العقيدة الدينية المتعلقة بطبيعتي المسيح، فاعتبر كلا من الطبيعتين كاملة مستقلة غير قابلة للانقسام، وكل من الطبيعتين مستقلة عن الأخرى. ويعتبر مذهب خلقدونية، وسطا بين المونوفيزتية، والنسطورية، فالخلاص في مذهب خلقدونية إنما جاء على يد المخلص الذي يعتبر إلها كاملا وإنسانا كاملا[73].

ثم الإمبراطور زينو(Zino) (474-491م)، الذي بدوره أراد أن يوفق في حل الخلاف الذي دار بين المينوفيزتية والاثناسيوسية (الأرثودكس)، فأصدر في سنة482م الاينوتيكون(Henoticon)<<كتاب الاتحاد>> فشجب تعاليم نسطوريوس وأوطيخا (Eutyches) [*] معا اجتنب الكلام بوضوح في الطبيعة الواحدة والطبيعتين. إلا أنه لم ينجح مما أثار سخط البابوية فتوترت العلاقات بين روما والقسطنطينية[74]. فدامت القطيعة بينهما إلى غاية 518م[75].

وبعده الإمبراطور انستاسيوس الأول(Anastassius I)(491-518م) الذي اعتنق المذهب المنوفيزتي واتخذه المذهب الرسمي للإمبراطورية، مما أثار حفيظة كنيسة روما وأدى ذلك إلى حدوث قطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية دامت إلى نهاية حكمه، كما أشعلت نيران الثورة في القسطنطينية واليونان. ومحاولة رئيس الثوار فيتاليان(Viatalian) احتلال القسطنطينية[76].

ولم يبقى على هذا الحد من النزاعات في عهد الإمبراطور هرقل(610-641م)، بل اشتد الصراع بين المذهبين (المينوفيزي والخلقدوني)، فحاول أن يوفق بين المذهبين ويوحد بينهما. فأعلن أن في المسيح طبيعتين مختلفتين، ولكنهما اتحدتا وأصبحتا في مشيئة واحدة وفعل واحد، وهذا المذهب عرف بمذهب الإرادة الواحدة. فلم يوافق أصحاب المذهبين[77]،

مثلما حبطت جهود الكنيسة والإمبراطورية في اتخاذ نوع من التوفيق بين المذاهب المختلفة في الأزمنة الماضية[78].

وهكذا كان القرن الرابع والخامس يمثلان قمة الصراع الديني بين الفرق المسيحية المتناحرة وصولا إلى الفصل في طبيعة المسيح ثم تليها المنازعات حول مسألة الصور (الأيقونات) بين محلل لها ومحرم. وإذا كان هذا الصراع العقيدي قد أثرا الفكر، إلا أنه بلا شك أهلك العقيدة، بتلك الخلافات الجذرية التي تفصل بين كنائس الشرق والغرب، وأدار معه في هذا التيه رؤوس الأباطرة ودواوين الحكومة والجنود والجموع على اختلاف طبقاتها.

وخلاصة القول أن خلال أزمنة القرن الثالث الطاحنة التي اعتصرت الإمبراطورية، والتي ساقت الإمبراطورية الرومانية إلى حافة الضياع، إلا أن الجهود التي قام بها الإمبراطور ديوقليسيانوس(305-384م) وأكملها الإمبراطور قسطنطين(337-306م) من إصلاحات هامة في المجال السياسي والإداري، والاقتصادي، والإجتماعي، والفني، والعقائدي، قد بعثت الحياة في الإمبراطورية من جديد، ومكنت لها في الأرض فترة امتدت أحد عشر قرنا من الزمان.

ونحن حين نريد الموازنة بين الفريقين لا يجوز لنا أن نتغاضى عن فكرة مؤداها أن البيزنطيين ورثة اليونان أصحاب الحضارة القديمة، إذ حافظوا على هذا التراث وأضافوا إليه ما ناسب عصرهم، والوريث الأول لمجد وتراث الإمبراطورية الرومانية حتى أنها زادتها بمساهمة روحية كبرى، وهو إدخال العقيدة المسيحية محل الديانات والمعتقدات الوثنية، محتلة القسطنطينية مكانة مميزة كعاصمة لأول إمبراطورية قيادية للعالم المسيحي الأرثوذوكسي، وظلت على هذا المنوال لقرون عديدة، كما نجد أن ثقافة بيزنطة قامت على قاعدة من

التراث الحضاري الإغريقي الروماني بعد اختلاطه ومزجه بالعقيدة المسيحية والتراث المشرقي، ودمجهم لهذا النتاج الفكري الوثني بالصبغة النصرانية . فقد قام في الناحية الشرقية زعماء ساهموا مساهمة كبيرة في بلورة إمبراطورية بيزنطية وتكوين هذه الثقافة الجديدة، فمثلا أنجبت قبادوقيا في أسيا الصغرى القديس باسيليوس الكبير(379-330م)، كما قدمت جرجوريوس النياسي (Gregorios Nyassaios) المتوفي عام 394م من بيروت، كما ساهمت مدينة بيروت العربية بالخبرة القانونية والفقهية في مدارسها الشهيرة التي شيدت منذ أيام الرومان، وساهمت أنطاكية بالتراث الفكري والفلسفة اللاهوتية، دون أن ننسى مدينة الإسكندرية التي كان لها الفضل الأكبر في الريادة العلمية واللاهوتية، خلال القرنين الخامس والسادس ميلادي، ومن أهم مساهمات بيزنطة في الحضارة الإنسانية في مجال التراث الفكري، خاصة في الإبداعات الفلسفية الجديدة الخاصة بتنظير وتفسير التعاليم المسيحية على أسس التحليل العقلاني والمنطقي، فقدمت بذلك العقيدة الأريوسية التي تبنتها القسطنطينية فيما بعد. ومن أشهر الأعلام الفكرية في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس أنجبت الإسكندرية الشهير أثناسيوس ذا اللسان الناري، الذي تولى رئاسة أسقفية الإسكندرية، وكتب عدة أبحاث رد فيها على أريوس، كما ألف كتابا عن حياة القديس أنطونيوس، لترويج الرهبنة في المشرق وفي أوروبا. أما مدينة قيصرية (Caesarea)العريقة في فلسطين فقد أنجبت الراهب الشهير والأديب يوسيبيوس( Eusebios) الذي كتب أبحاثا في التاريخ من أهمها مؤلفة الشهير << التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica>> ، كما كتب حوليات وألف كتابا عن حياة قسطنطين. واستطاعوا بذلك أن يحموا هذا التراث القيم، وينقلوه إلى الأمم المجاورة مثل مصر، والشّام، وبلاد فارس. فكان الفكر البيزنطي وارثا ومبتكرا أصيلا بآن.

(1) الباز العريني، ( أوروبا العصور الوسطى)، دار النهضة العربية، بيروت 1968، ص41.

(2) Besnier(Maurice), *Histoire Romaine:l'Empire Romain de l'Avènement des Severes au Conseil de Nicèe*, Tome IV,Edition : Puf, Paris1937,p.298.

(3)المانوية: مذهب ماني فارسي، صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام، والخير والشر.أنظر المنجد في الأعلام، ط2، دار المشرق، لبنان 1969، ص471. وكذلك أنظر طه باقر، فوزي رشيد، رضا جواد هاشم، *تاريخ إيران القديم*، مطبعة جامعة بغداد، 1979، ص123.

(4) الباز العريني، (أوروبا العصور الوسطى)، المرجع السابق، ص42.

(5) الباز العريني، المرجع نفسه، ص42.

(6) نفسه، ص43.

(7) عمر كمال توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، مصر 1995، ص41-42.

(8) الباز العريني، (أوروبا العصور الوسطى)، المرجع السابق، ص43.

(9) قسطنطين(Constantin)(306م-337م): ولد قسطنطين في مدينة نيسوس(Naissus)( نيش الحالية في يوغوسلافيا) في إقليم داكيا (Dacia)، وكان أبوه كونستانيتوس كلوروس من أسرة من ايلليريا، وأمه هيلينا (Helena)، والتي كانت تدين بالنصرانية واعتبرت فيما بعد قديسة (سانت هيلينا). عندما بلغ الثامنة عشر، ارتقى والده إلى منصب القيصر، في بريطانيا، لم يلتحق بوالده إنما فضّل البقاء في خدمة الإمبراطور ديوقلسيانوس. اشترك في عدة حروب منها حرب ضد مصر وبلاد فارس، وارتقى بذلك إلى منصب القائد العام في الجيش، وكان مخلصا ومحبا لعمله، فغدا في قائمة المترشحين لمنصب القيصر، وفي عام 305م رفع جاليريوس لمنصب الإمبراطور حسب النظام الذي وضعه ديوقلسيانوس، فرحل إلى بريطانيا والتحق بأبيه خوفا من جاليريوس الذي يكن له الكراهية، وعند وفاة أبيه عام306م، نادت الحامية بقسطنطين امبراطورا خلفا لأبيه.انظر: نبيه عاقل، (الإمبراطورية البيزنطية) دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري، مطابع الف باء الأديب، دمشق 1970، ص25.وكذا: Gibbon(Edouard),Histoire du déclin et de la chute de l'empire romain, Romme de 96 à582, trad.Del'anglais par M.F.Guizot, 1 er edition,éd. Robert Laffont, S.A,Paris1983, pp.326-327.

(10) بنيت على أنقاض مدينة قديمة تدعى بوزانطيا، أسسها بيزانس(Byzas أحد قواد البحارة اليونانيين الذي هجر من مدينة ميجاراMegara في القرن السابع ق.م وعرفت باسمه.أنظر: ج.م هسى، *العالم البيزنطي*، ت. رأفت عبد الحميد، دار روتابرينت، 1997، ص73. وكذالك أنظر:- Alzonne(Clément),*Istanbul*, éd. fermand Nathan , Paris1936,pp8-11

(11) محمـود سـعيد عمـران، الامبراطوريـة البيزنطيـة وحضـارتها، دار النهضـة العربيـة، لبنـان 2002، ص29. وكذا أنظر:

-Bréhier(Louis), Vie et Mort de Byzance, éd. Albin Michel, Paris 1947,p2.

(12)الباز العريني، (أوروبا العصور الوسطى)، المرجع السابق، ص79 . وكذا أنظر : - Bréhier(Louis), Ibid, p2-3.

(13) -Diehl(Charles),*Byzance,grandeur et décadence*, ,éd .Flammarion, Paris1919, p.105.

(14) قحطان عبد الستار الحديثي، صلاح عبد الهادي الحيدري، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، مطبعة جامعة البصرة، بغداد 1968، ص257. وكذا أنظر: - Runciman(S.), La civilisation byzantine 330-1453,trad de E.J.Lévy, Payot, Paris 1939, p10.

(15) الباز العريني، (*الدولة البيزنطية*)، دار النهضة العربية، القاهرة 1965، ص 30. وكذا أنظر:- Ostrogorsky(G.),Histoire de l'état byzantin, T.J gouillard, préf. De paul lemerle, éd.Payot, Paris1977.p72.

(16) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 29-30. وكذا أنظر: - Runciman(S.),Op.Cit, p10

(17) الباز العريني، (الدولة البيزنطية)، المرجع السابق، ص 30-31.

(18) Bréhier (Louis), Op.Cit, p1.

(19) نبيه عاقل، المرجع السابق، ص7.

(20) -Diehl(Charles),(Byzance,grandeur et décadence),Op.Cit, p11

أنظر كذالك: Runciman(S.), Op.Cit, p12

(21) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص50.وكذا أنظر: - Lemerle(Paul),Histoire de Byzance, éd.presse universitaire de France, Paris 1975, p.24.

(22) المرجع نفسه، ص49.

(23) نفسه، ص 50-52.

(24) المرجع نفسه، ص50-52.

(25) نفسه، ص52.

(26) -Gibbon(Edouard),Op.Cit, p.424.

(27) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص24-25.

(28) Runciman(S.),Op.Cit, p24-25. -

(29) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص54. وكذا أنظر: . Runciman(S.), Ibid, p24 -

(30) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص54.

(31) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص28.

(32) Lemerle(Paul),Op.Cit, p.18 - أنظر كذالك: Ostrogorsky, Op.Cit, p72. -

(33) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص56.

(34) محمـــود ســـعيد عمـــران، المرجـــع الســـابق، ص26. وكـــذا أنظـــر:- Gibbon(Edouard),Op.Cit, p554.

(35) عمر كمال توفيق، نفسه، ص57-58.

(36) المرجع نفسه، ص57-58.

(37) نفسه، ص58-59.

(38) سعيد عبد الفتاح عاشور،تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ب.ت، ص39.

(39) كان أريوس أحد قساوسة مصر، وراعي كنيسة بوكاليس بالإسكندرية، ولم نعلم عنه إلا شيئا يسيرا، فلا نعرف شيئا عن محل ولادته وتاريخها، كما نجهل تفاصيل فلسفته الدينية، إذ ضاعت رسائله، ولم يبق منها إلا مقتطفات جاءت في بعض الردود عليه لا سيما ما كتبه القديس أثناسيوس.انظر الباز العريني،(الدولة البيزنطية)، المرجع السابق، ص32.

(40) ج.م هسى، المرجع السابق، ص76. وكذا أنظر:.Béhier(L.), Op.Cit, p18 -

(41) أثناسيوس: أسقف الاسكندرية منذ328، اشتهر بتفانيه في نصرة الارثوذكسية، على الرغم مما ناله من النفي زمنا طويلا، وضل يناضل من أجل عقيدته حتى مات سنة 373م.أنظر الباز العريني، (*الدولة البيزنطية*)، المرجع السابق، ص33.

(42) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص40.

(43) الباز العريني،(الدولة البيزنطية)، المرجع السابق، ص32-33. وكذا أنظر: Lemerle(P.), Op.Cit, p19.

(44) Gibbon(Edouard),Op.Cit, p560. -

(45) الباز العريني،( *تاريخ أوروبا العصور الوسطى*)، المرجع السابق، ص74.

(46) ج.م هسى، المرجع السابق، ص76.

(47) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص41. وكذا أنظر: عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص70-71.

(48) Lemerle(P.), Op.Cit, p20.

(49) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق، ص41-42.

(50) قحطان عبد الستار الحديثي، المرجع السابق، ص269.

Gibbon(Edouard),Op.Cit,p588-593 . (52)

(53) الباز العريني،(*الدولة البيزنطية*)، المرجع السابق، ص35.وكذا أنظر: Ostrogorsky(G.),Op.Cit,p76

(54) أسد رستم، *الروم في سياستهم، حضارتهم، ودينهم، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب*، دار المكشوف، ج1،ب.ت، ص77.

(55) قحطان عبد الستار الحديثي، المرجع السابق، ص270.

(56) جوليان(363-361): هو ابن عم كونستانتيوس بن قسطنطين الكبير وزوج أخته هيلينا. انظر نبيه عاقل، (الإمبراطورية البيزنطية)، المرجع السابق، ص34.

- Gibbon(Edouard),Op.Cit, pp.640-642. (57)

(58) نبيه عاقل، (الإمبراطورية البيزنطية)، المرجع السابق، ص35-36.

- Gibbon(Edouard),Op.Cit, pp.653-654 (59)

(60) Gibbon(Edouard),Ibid, pp.689, 702,804-806 - كذالك أنظر: أسد رستم، المرجع السابق، ص94-95.

- Gibbon(Edouard), Ibid, pp.806, 842-844. (61)

Ibid,p.831. (62)

(63) نبيه عاقل، ( الإمبراطورية البيزنطية)، المرجع السابق، ص43.

(64) المرجع نفسه، ص 43.

(65) نفسه، ص 32.

(66)كان من بين القوانين الخاصة بالتنظيم الكنسي التي صدرت عن مجمع نيقية(المسكوني الأول)سنة 325، القانون السادس ونصه<< يتمتع أسقف الإسكندرية بحق الإشراف على ورعاية، كنائس مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، كما جرى بذلك التقليد القديم، ويراعى هذا الحق أيضا لأسقف روما وأسقف أنطاكية فيما تحت سيادته>>وكان هذا اعترافا بأسبقية الأسقفيات الثلاث على ما عداها، ومن الطبيعي أن لا يتضمن القانون القسطنطينية، لأن المدينة لم تكن قد بنيت بعد. ومن ثم فإنه في المجمع المسكوني الثاني الذي عقد سنة 381 في القسطنطينية، نص القانون التنظيمي الثالث الصادر عنه على ما يلي:<< لأسقف القسطنطينية حق التقدمة في الكرامة بعد أسقف روما، لأن القسطنطينية هي روما الجديدة>>ومن المعروف أن هذا القانون لا يمس مكانة أسقف روما، ولكنه ينعكس بصورة مباشرة على مكانة كنيستي الإسكندرية وأنطاكية، كما أن القانون الثامن والعشرين من قوانين مجمع خلقدونية ساوى بين القسطنطينية، وروما في المرتبة، مما سيؤدي إلى نتائج بعيدة المدى فيما بعد. أنظر: ج.م هسى، المرجع السابق ، ص86.

(67)الباز العريني، (الدولة البيزنطية)، المرجع السابق، ص49-50..وأيضا: Ostrogorsky(G.),Op.Cit,p84-85.

(68) النسطوري: نسبة إلى نسطورس Nestorius الذي أصبح بطريق القسطنطينية عام 428 وموجز أرائه انه تتواجد في المسيح طبيعتان إلهية وبشرية.غير أن الطبيعة الأخيرة هي المتغلبة على شخصية المسيح. وان العذراء لم تكن أما لتلك الطبيعة الإلهية وإنما هي أم المسيح البشري –أنظر عبد القادر أحمد اليوسف، *الإمبراطورية البيزنطية*، المكتبة العصرية، بيروت1966، ص26. وكذا أنظر ج.م هسى، المرجع السابق، ص88.

(69) المينوفيزية: وهم أصحاب الطبيعة الواحدة التي تقول بأن الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح قد امتزجتا وكونتا طبيعة واحدة مقدسة – أنظر عبد القادر أحمد اليوسف، المرجع السابق، ص27.

(70) Béhier(L.), Op. Cit,p18.

(71) قحطان عبد الستار الحديثي، المرجع السابق، ص276.

(72) الباز العريني، (*الدولة البيزنطية*)، المرجع السابق، ص52-53. لمطالعة نص مذهب خلقدونية أنظر: أسد رستم، المرجع السابق، ص127-128.

(73)أوطيخا (Eutyches): هو أحد رهبان القسطنطينية بنى أرائه من أناثيما(Anathema)لعنة كيرلس أسقف الإسكندرية التي تناول فيها أراء نسطورس بالتنفيد، ووضع 12 بندا للإيمان السكندري أردف كل واحد منها باللعنة على كل من يخالفها.واستخلص رأي أوطيخا في أن المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية، التي ابتلعت الطبيعة البشرية وعرفت هذه التعاليم الجديدة بالمونوفيزية.أنظر ج.م هسى، المرجع السابق، ص88-89.وكذا أنظر: الباز العريني،( الدولة البيزنطية)، المرجع السابق، ص51-52.

(74) أسد رستم، المرجع السابق، ج1، ص133. وكذا أنظر: Béhier(L.), Op. Cit,p19.

(75) Lemerle(P.), Op.Cit, p42.

(76) Diehl(Charles), *Histoire de L'empire Byzantin*, éd.A&J.Picard, Paris1969, pp15-17.

(77) إيلي مخائيل قطرميز، *أثر التفاعل الحضاري بين البيزنطيين والعرب في الأدب العربي*، ط1،مكتبة السائح، لبنان2004، ص41.

(78) الباز العريني، (الدولة البيزنطية)، المرجع السابق، ص 134.